شرقٌ يقيم الحجات

وغربٌ يمهد السبيل اليها[1]

لميخائيل نعيمة

لقد كان من هجمة الشرق بعد يقظته ، ومن يقظة الغرب بعد هجمته أن تبادر الى أذهان كثير من الناس أن الشرق قد شاخ وهرم ، وان الغرب لا يزال في ميعة شبابه وعنفوان قوّته . فأصبح من شاة الكلام عن الاثنين لا يجد ما ينعت به الشرق أفضل من الانحطاط ، والجمود ، والخنوع ، والتفكك ، والتحجّر ، والكسل ، وفقر الجيب والقلب ، وعمى البصيرة والبصر . ولا ما ينعت به الغرب أقل من النور ، والعلم ، والاقدام ، والرقيّ والحرية ، والعدالة ، والبأس ، والشجاعة ، والبروءة . فكأن الشرق بؤرة من الاوبئة القتالة ، والغرب فوّارة من البركات المحيية . أما الحقيقة فهي ان كلا التوأمين — الشرق والغرب — يجدّد شبابه كالنسر . ولن يتفكّا يهجع الواحد فيهض الآخر ، وينكمش هذا فينبسط ذاك ، حتى يبلغا بالانسانية الى حيث لا هجوع بعد نهوض ، ولا انكماش بعد انبساط ، بل وجود بغير شطوط ، وحياة بغير عواصف

والغريب ان أبناء هذا الشرق كانوا ، وما برح الكثير منهم حتى اليوم ، أقطع تكيلاً بشرقهم من أبناء الغرب ، وأشد اعجاباً بالغرب من رجال الغرب . فقد تسمعون في الغرب أصواتاً تجاهر بالثواء سبيله ، وإفلاس فكره ، وفقر روحه بالنسبة الى الشرق . ولا تكادون تسمعون في الشرق صوتاً يشيد بما فيه من كنوز للقلب والفكر والخيال . وأغرب من ذلك أن هذه الكنوز عينها هي في نظر دعاة الغرب في الشرق الدليل الاول والاخير في ما يدعونه انحطاطاً وما هو بالانحطاط ، وجموداً وما هو بالجمود ، واحتضاراً وما هو بالاحتضار. إن هو غير هدأة بين عاصفتين ، وغفوة بين موجتين

أصحيح ما يزعمه الزاعمون ان أنبياء الشرق قد جنوا على الشرق ، وان أديان الشرق

---

(١) ذيلت من رواد الشرق — بيروت

هي أكبر آفات الشرق ؟ أصحيح ان السماء قد شغلت الشرق عن الارض ، والآخرة عن الدنيا ، وان الاعتقاد بالقدر قد غلّ يديه ، وشلّ فكره ، وأسدل حجاباً على عينيه ؟ أصحيح ان الشرق مات لأنهُ آمن بالاله الحيّ الذي لا يموت ؟

لا . ثم لا . ثم لا . فالذي فعله الشرق حتى اليوم ما كان أكثر من وضع محجات له وللعالم أجمع . وتلك المحجات تتوحد كلها في محجة واحدة ، هي محجة الكمال لهذا المخلوق الذي ندعوه انساناً — محجة الانطلاق من قيود اللحم والدم ، والتغلب على الحيرة وما في الحيرة من وجع ، وعلى الموت وما في الموت من ألم ، والتسلط على طلاسم الوجود ، ثم الانطلاق في حياة لا حدود لها ولا قيود فيها يرف عليها سلام المعرفة ، ويتألق في جوّها بهاء الألوهة ، ويندمج في قبضتها النقيض بالنقيض ، ويتلاشى في فضائها الزمان والمكان

وهذه المحجة قد نفذ اليها الشرق ببصيرته البالغة منتهى القداوة والصفاء في بصائر انبيائه. فهي حقيقة لا مجاز . وهي رؤية لا رؤيا . وهي واحة حيّة لا سراب خدّاع

أما ان الشرق بمجموعه ما بلغ تلك المحجة بعد فأمرٌ لا نزاع فيهِ على الاطلاق . والقائل بعكس ذلك كالقائل بأن كل رجل في الشرق نبيّ وكل امرأة نبيّة . أو كالقائل بأن كل رجل في الغرب عالِم أو مخترع وكل امرأة عالمة أو مخترعة . وفي ذلك ما فيهِ من السذاجة والبلاهة

ليس يعيب منارةً ألاّ يستنير بنورها الحارس الساكن في كنفها مثلما لا يعيب قمة نابتة في بقعة من الارض ألاّ يتسلقها ابناء تلك الارض . فمحجة الشرق هي هي — حقيقة وضاءة ثابتة ابدية — سواء أفي هذه الحقبة من حياته أدركها الشرق ام بعد حقب طويلة

بل يكفي الشرق فخراً — اذا كان من عيال للفاخرة — انهُ في فترة من حياته التهب حماسة لتلك المحجة واتقد ايماناً بها ، وتفانى في سبيل الوصول اليها . ولكنهُ ادركه العياء قبل الوصول . فانكفأ على ذاته ، وراح يوصّل ما تقطع من لياط قلبه ، ويرمم ما انهار من عزمه ، ويبحث في الثرى عن الثريا ، فيقوته الثرى ولا يظفر بالثريا

ذاك لأن الطريق المؤدي الى تلك المحجة طريق ليس يكفي السالكين فيهِ ان يؤمنوا بالمحجة وان يتبركوا بأسمائها واضعيها ، وان يتصدقوا على متسوّل ، ويطعموا جائعاً ، او ان ينقطعوا اياماً عن الطعام ، او ان يؤدوا فروضاً معلومة في المعابد

انهُ الطريق ما عبّدتهُ كثرة الارجل بعد . والرعيل الاوّل من الانسانية الذي قطعه انما قطعهُ مشياً على القلوب لا على الاقدام ، وعلى ضوء غير ضوء الشمس والقمر . وسواد الناس شرقاً وغرباً ، لا يزالون اطفالاً لا يحسنون المشي على اقدامهم حتى الآن . فكيف بهم يمشون على قلوبهم ؟ وهم يتعثرون في النهار فكيف بهم وهم في ظلمة دامسة ؟

ما هو بالشار على الشرق ألاّ يدرك المحجة بوثبة او بوثبتين ، او في خلال قرن او قرنين . فما هي بالمحجة التي تدرك بألف وثبة وفي ألف جيل . وانما الشار ان يقعد الشرق بمجموعه ، من بعد ان وثب ولم يصل ، قعدة اليائس البائس ، قعدة المنهوك والمقهور ، قعدة الخاسر الخائر ، ثم ان يشيح بوجهه عن محجته قائلاً انها خيال وان الوصول اليها ضرب من المحال . وان يدير وجهه شطر الغرب باحثاً هناك عن محجة وعن طريق

أقول لكم ان لا محجة للانسان أبدع وأسمى وأقوى على الزمان من التي نصبها الشرق وراح يدعو اليها الناس اجمعين وهي اذا ما تحجبت عن العصر المتسم بالف فناع فلأنها ابنة البصيرة الديرة الصافية . وهي اذا ما عزّ منالها فلأن المنال عزيز المنال . وهي حقيقة مثلما الوجود حقيقة بل هي الحقيقة قبل كل حقيقة وبعد كل حقيقة

ثم اقول لكم ان الغرب لعاجز عن خلق مثل تلك المحجة ، بل عن خلق أية محجة للانسان تقوى على الزمان وتقلباته . ذاك لان الغرب سائر على ضوء بصره . والبصر لا يثبت على حال لأن الأشياء التي يتناولها لا تثبت على حال . ولكن للغرب رسالته مثلما للشرق رسالته

ان تكن رسالة الشرق البصيرة خلق المحجات فرسالة الغرب البصر هي تعبيد الطرق اليها

تقولون : وكيف للغرب الذي لا يبصر محجة الشرق ولا يؤمن بها ان يعبد الطريق اليها ؟ وجوابي هو انه فعل ذلك في كل ما يفعل، ولكن من حيث لا يدري ولا يقصد . وهنا الأعجوبة

لقد حصر الغرب همه في درس هذا العالم المحسوس والسنن التي يتمشى عليها . ثم راح يطبق ما اكتشفه من تلك السنن على حياته اليومية . فكانت علومه وكانت فنونه . وكان منها ذلك السيل من المخترعات والمكتشفات الذي لا يزال في أوجه والذي اذا ما بلغ يوماً حده فسيعود حتماً بالانسان من المحسوس الى غير المحسوس - اي من البصر الى البصيرة، من المحدود الى غير المحدود ، من البدايات الى اللابداية، ومن النهايات الى اللانهاية. وتلك هي محجة الشرق بعينها

أما تروون الى العلم الذي هو دعامة المدنية الغربية والذي يدعي ويجاهر ان لا شغل له الاّ بالمحسوسات كيف انه يبتدىء بغير المحسوس لينتقل منه الى المحسوس ؟

فالنقطة التي هي لا شيء تصبح مقياساً لسائر الابعاد ، وأساساً للهندسة العملية . والواحد الذي ليس سوى خيال محت يصبح الأول والآخر في جميع المعادلات الرياضية والمعادلات الرياضية التي تقوم عليها عامة العلوم الطبيعية تنقلب بالطاقات معجزات وحسبكم آخر وطائرات وما لدنت للكهرباء . والكهرباء التي ما كنا نعلمها الاّ كبرق في السماء تسبّل نوراً ساطعاً في أسلاك من النحاس ، او تسير أمة بحاً في الاثير تنقل أصوات الناس الى الناس وأخبار الناس الى الناس من أقاصي الشارق . تى أقاصي المغارب

فلا نكران اذن ان للعلم الحديث كما رتبهُ ونسقهُ وروجهُ الغرب فضلاً عظيماً على الشرق والغرب معاً . انهُ من حيث لا يقصد ، دائب في نقل ما لا يحس الى حيز المحسوس ، أو ما كان خفي دائرة البصيرة الى دائرة البصر . ولان معظم الناس — خاصتهم وعامتهم — لا يؤمنون بالكهرباء الا ان يبصروها نوراً في بيوتهم ، ولا بالشيء الا ان يلبسوه ثوباً على أجسادهم أو يعضغوهُ تفاحة بأضراسهم ، لذلك كان للعلم الحديث هذا الأثر البالغ في عقولهم وحياتهم وكانت للغرب هذه المنزلة في ضمير الشرق

ثم لا نكران ان الغرب قد سهّل على الانسان أمر المعيشة بفضل ما استنبط من حيَل ميكانيكية ، وما توصّل اليهِ من خيرات كانت دفينة في الماء والتراب . واذا ما أعوزته اليوم الحكمة لخلق نُظُم لا تحرم البعض وتبلي البعض بالتخم ، فالحاجة التي لا ترحم ستعلّمه في الغد ما ليس يعلمه اليوم ، وستساعده على خلق عالم لا ينفق جلّ حياته في السعي وراء ما يلهي بهِ بطنه ويستر عريه ويحمي جسده من نقمة العناصر . ومتى انعتق الناس من كابوس القوت والكساء والمأوى أصبح في امكانهم الالتفات الى تسكيت جوع غير جوع البطن ، وتستير عري غير عري الجسد ، والتفتيش عن مأوى يحميهم من نقمة أنفسهم التي لن ترضى بمأوى غير حضن الله

وثمة منة ثالثة للغرب لا بد من ذكرها . وهي ان هذا السيّار الذي يعلم الله كم دار بنا وكم سيدور في فيافي الفضاء ، كان الى عهد قريب مأوى مَتراس الاطراف ، كثير المجاهل ، وهر المسالك ، عديد الالسن ، وفير الصيغات ، متضارب النزعات . اما اليوم فقد اصبح بفضل الغرب ومخترعاته كرة تكاد تحتويها قبضة الطفل . فالطيارة قد محت الابعاد والمجاهل ، والحدود والحواجز

وهذه الآلة العجيبة التي اخاطبكم بواسطتها الآن قد وصلت كل لسان اينما كان بكل اذن اينما كانت . وعلاوة على ذلك فالمدنية الغربية قد احدثت حاجات كثيرة وخلقت ازياء كثيرة يشترك فيها ابن الشمال مع ابن الجنوب ، وابن الغرب مع ابن الشرق . حتى ان سائحاً ليكاد يسبح اليوم حول الأرض في اقلّ من اسبوع من غير ان يحتاج الى دليل او ترجمان . وقد كان لا ينتقل من قرية الى قرية ، حتى في القطر الواحد ، الا بعضّ النكر والتلب والعصب

هكذا نرى الغرب ، بعلومه وفنونه ، ومخترعاته ومكتشفاته ، وحتى بحروبه ، يصل الارض بعضها ببعض . ومن حيث لا يدري يمهّد السبيل امام الانسانية المبعثرة الشمل عائلة واحدة يجمعها بيت واحد وتتوردها مائدة واحدة على غاية واحدة . وذلك ما ادى

به الشرق من زمان . أما قال أحبّ قريبك كنفسك ؟ أما قال عاملهُ بمثل ما تريد منه ان يعاملك ؟ أما قال ان الناس كلهم عيال الله ؟

وعند ما تبلغ علوم الغرب المادية أقصى مداها ، عند ما تفلق الذرّة أو ترتد عاجزة عن فلقها ، سترها وجهاً لوجه مع ما يجعل المادة مادّة وليس بمادّة — مع القدرة التي أسماها الشرق الله ورفعها محجة للانسان المخلوق على صورتها ومثالها . وبكلمة أخرى ، سينتهي الغرب من المحسوس الى غير المحسوس . وبذلك تنتهي مهمته في هذه الدورة من حياة الانسانية وتبتدىء من جديد مهمة الشرق

ومهمة الشرق إذ ذاك ، وقد مهّد الغرب له الطريق الى المحجة ، هي جلو تلك المحجة كيما تظهر في كل بهائها ، نقية من السفاسف والترهات التي حجب الجهل بها سناءها وحجبها باسم الله والدين وما هي من الدين والله لا بحصر ولا بحلّ . ثم لمّ شعث الانسانية التائهة ما بين بصرها وبصيرتها وبثّ النشاط في مفاصلها المفككة ، وبعث الايمان الدفين في قلبها بجمال تلك المحجة وحكمتها وعدلها ، ثم السير بهاته الانسانية المتجددة نحو محجتها بخطى لا تردّد فيها ، وعزم لا التواء فيه ، وارادة تعرف ما تريد ، ولا تريد غير ما تعرف ، فلا يقهرها شيء ، ولا يثنيها عياء

الأعشاب

(من شعر ستيفن كرين الاميركي ١٨٧٩ — ١٩٠٠)

مشت طائفة من الأعشاب بين يدي « العزيز » . فقال لها ما فعلت . فتهافتت جميعاً — إلاّ واحدة منها — على تعديد مآثرها في الحياة . أما العشبة الصغيرة ، فانتحت مكاناً وراءهنّ وعليها آثار الحياء . فالتفت « العزيز » اليها وقال : وأنتِ ما فعلت ؟ فقالت : رباه . ان الذكرى أليمة . واذا كان لي في حياتي حسنة ما فقد نسيتها عندئذٍ . فاستوى « العزيز » متجلياً في بهائه وجلاله . ثم نهض عن العرش وقال :

« يا أفضل الأعشاب »